

ما بين العقل والنقد في فلسفة إيمانويل كانط

Betweenmindand criticism in the philosophyof Emmanuel Kant

الدكتور: بن شعيب بلقاسم

Dr. Benchaib Belkacem

جامعة عمار تليجي الأغواط (الجزائر)، benchaibelkacem15@gmail.com

تاريخ النشر: 2023/07/13

تاريخ القبول: 2023/02/07

تاريخ الاستلام: 2022/11/12

المخلص: انخرط كانط في فلسفة العقل والنقد للوصول إلى المعرفة الهادفة، تلك المعرفة التي تتماهى في الفلسفة النقدية لديه، إذ كان المشروع الكانطي يتسم بالروح الفكرية في العقل المحض الذي يثبت وجوده في المعرفة المثالية، والتي تتجلى في صنع الإرادة العامة عبر العقل ونقد العقل في حد ذاته، وهو بذلك يحاول التوفيق بين المعرفة العقلية والمعرفة الحسية من أجل إخراج الميتافيزيقا منهما، والتوجه إلى المعرفة العلمية بعقل عملي ونظري لا يمكن تجاوزه لفهم التصورات القبلية والبعديّة معا. وهو بذلك يضع شروطا للمعرفة من أجل تسويقها في الفضاء العام الذي يحافظ على وجودية الإنسان ويبعده عن الخيال المعرفي ليتوجه صوب المعرفة العقلانية التي تحدد دوره في العقل المحض على أساس الارتباط بالفلسفة المثالية والتي نصل في منتهاها إلى الأخلاق العملية المنظمة بين العقل والنقد للوصول إلى المعرفة.

الكلمات المفتاحية: إيمانويل كانط، العقل، النقد، المعرفة، الإرادة العامة.

Abstract:

Kant joined the philosophy of mind and criticism to reach the purposeful knowledge which identified in the critical philosophy that he had. Kant's project particularized with intellectual spirit in the pure mind that proves its existence in the perfect knowledge, and consists in the production of the general device through the mind and criticises the mind itself, and tried to balance between the mental knowledge and the sensitive knowledge in order to estimate metaphysics from them, toward the scientific knowledge by a practical and theoretical mind, and it could not pass it in order to understand both previous and next imagination in which he put conditions to the knowledge to distribute it in the general space that saves the human being's existence and deports him from the knowledgeable fiction toward the rational knowledge that selects his role in the pure mind based on its relation with the idealism philosophy in which we will reach at the end to the scientific ethics that are organised between mind and criticism to reach to knowledge.

Keywords: Emmanuel Kant, mind, criticism, knowledge, general device.

1. مقدمة:

يتحدد العقل (Reason) الكانطي في الممارسة الفعلية التي يستوجبها الواقع العملي انطلاقا مما هو محسوس، مما يفرض على العقل أن يدرك ماهيته أولا لإضفاء نوع من التحليل العقلاني المدرك للأشياء جميعا والذي لا يكون إلا عبر النقد العملي الخالص. والذي يتحدد في الأخلاق الفعلية الممارسة على أرض الواقع في إطار نوع من عقلنة الفعل الخلقى في حد ذاته. وهو إطار مارسه كانط من أجل أن يثبت دور النقد انطلاقا من الشك المنهجي الذي يوصلنا إلى المعرفة بكل أنواعها. إن ذلك العقل لن يستقيم إلا بالرجوع إلى الجانب الموضوعي والمادي منه باعتبار التوافق بين العقل والحس هو توافق عملي لا يمكن أن يتجاوز التجربة الحسية والفعل العقلاني إلى غيره. إن هذا ليبين دور العملية المعرفية البعيدة عن الميتافيزيقا والقريبة من النظرة العملية المنهجية.

وفي هذا الصدد يمكننا أن نطرح الإشكال الآتي: كيف وفق كانط إلى التوفيق بين العقل والنقد في فلسفته؟ وهل وصل إلى عقل عملي خالص؟ وكيف ذلك؟

نستطيع أن نبين دور العمل العقلي والنقدي في الفلسفة التوفيقية الكانطية بناء على بعض الفرضيات التي تحدد هذا الموضوع. إذ يسعى كانط وكفرضية أولى إلى إعادة ترتيب دور العقل وتنقيته من الشوائب الفكرية والمخلفات الميتافيزيقية وكذا بعض الأفكار الغيبية والدينية القديمة. كما يحاول كانط في فرضيات هذا البحث أن يصنع نظرة تقاربية توافقية بين العقل والنقد كمنهجين مؤسسين للفلسفة النقدية الكانطية.

ويباشر كانط في هذا المجال إلى تبين المعرفة بثتى أنواعها وخاصة المعرفة العقلية والحسية معا. وذلك يعتبر من أهداف هذا البحث المبين. إذ تتجلى منهجية هذا البحث على التحليل العقلي والنقدي الموافق لطرح الأفكار الكانطية وفق أسس ومبادئ المنطق والفلسفة من أجل بلوغ بحث يصل إلى مبتغاه المعرفي في الفلسفة العقلية النقدية الكانطية.

2. ما بين العقل العملي والعقل النظري عند كانط:

1.2 العقل العملي عند كانط:

يسهم كانط في فلسفته النقدية إلى الدفاع عن العقل الذي يراه ضرورة لا بد منها من أجل الوجود الهادف للمعرفة بكل رهاناتها وتوازاناتها، وبما أن العقل لا ينبغي وجوده عرضيا عند كانط، ينبغي أن يكون وجوده فعليا في الحياة العامة للإنسان، بل ويخلصه من الميتافيزيقا التي باتت تأكل أفكاره وتعرقل توجهاته المعرفية. وهنا نجد يقول: "وفي هذه المعارف التي تتخطى العالم الحسي، حيث لا يمكن للتجربة أن تعدل أو تصحح، تقع مباحث عقلنا التي نعددها من حيث الهدف النهائي أفضل أهمية وأسمى بكثير من كل ما قد يفيدنا به الفاهمة في حقل ظاهرات

اقتراننا بما يميل إلى محاولة كل شيء والمجازفة حتى بأن نخطئ، ولا يتجلى ذلك إلا في تلك الأبحاث التي تمكن هذه الأهمية لأي سبب سواء أكان صعوبة أم ازدراء أم لا" (كانط، صفحة 47).

2.2. العقل النظري عند كانط:

يعرف النظر عن أي شيء كان، فإن كانط يحاول الولوج بالعقل إلى عالم الظاهرة المحسوسة لكي يصيب أهدافه الواقعية في المعرفة الحسية ويبيد تحليلها وتصويبها، لأنه يملك القدرة على التمييز بين الأشياء والفصل بينها. "قبل الآن كان الغرض السائد هو أن معرفتنا ينبغي أن تطابق الأشياء ولكن كل محاولة لتوسيع نطاق معرفتنا بالأشياء عن طريق إيجاد شيء متعلق مما يسعى إليه أن الفلسفة - كما يراها كانط ليست نظرية فحسب، بل هي عملية أيضا، فالفلسفة النظرية تحدد الذات، أي تعطيها وتقنها وتبين قوانينها للعيان، بينما تحقق الفلسفة العملية الذات وبلغه أرسطو تنتقل الذات من القوة إلى الفعل، أو من مجال الفكر إلى مجال الواقع الفعلي، وبمعنى آخر أصبحت الفلسفة النظرية هي فلسفة ما هو كائن، أو علم ميتافيزيقا الطبيعة، بينما أصبحت الفلسفة العملية هي علم ما ينبغي أن يكون Whot ought أو علم الحرية" (إبراهيم، الصفحات 29-30).

يكون بذلك كانط قد وصل إلى مسلمة مفادها أن العقل النظري يجب أن يرقى إلى عقل عملي فعال وفاعل في الحياة النقدية والفعالية للإنسان، لاسيما تلك التجربة الحسية منها، وذلك كله يفرض علينا التكنولوجيا والتقدم العلمي الذي يجب أن يحايث الجوانب العملية دون إهمال العقل النظري في أي معرفة فلسفية أو نقدية كانت. "ويحق ولتحقيق هذا الهدف، اتجهت فلسفة كانط إلى تمكين طاقات العقل وإمكاناته بغية الوصول إلى القواعد والمبادئ التي تضبط كل معرفة وكل أخلاق" (كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما، 1991، صفحة 19).

اتجه كانط صوب نقد العقل لإنتاج معرفة ومبادئ أساسية قائمة على قواعد منطقية وأخلاقية سليمة للحيلولة دون الوصول بالإنسان إلى معرفة فوق واقعية، فيعطي كانط أولوية للفكر المنغلق الذي ينتقل إلى الفضاء العام من أجل إثبات نوعية المعرفة وصلاحياتها في جانبها العملي والنظري، وينتقد كانط دور الميتافيزيقا في المعرفة، لأنها تهز أركان المعرفة الصائبة والسليمة "بل لقد استطاع كانط أن يصرح بأن تكون لا تتحقق، لأن المطلق لا ينتقل إلى عالم التجربة، لفقدان التجانس بين العالمين. يشير إلى أن هذا لا يمنع من أن يكون شأن هذه الفكرة كشأن فكرة الله، وفكرة الفضيلة، بمعنى أنها -وفقا لاصطلاح كانط نفسه- مبدأ منظم وقاعدة يسترشد بها في العمل ذلك أن العقل العملي (الأخلاق) يصدر إلينا أمرا صارما ننتلقاه صاغرين" (كانط، مشروع للسلام الدائم، 1952، الصفحات 18-19).

بذلك يرى كانط أن العقل العملي ضرورة لا بد منها لينطبق الفكر مع الواقع، بل وضرورة أخلاقية أيضا لإحداث نوع من التوافق بين العقل والفكر حتى يكون الإنسان في حيز واقع وعملي براغماتي يغنيه عن أي معرفة صورية لا يمكنه الأخذ بها في الفلسفة بالمفهوم العام. وهنا يرى كانط أن: "الفكر النقدي، وبالأخص على مستوى نقد العقل المحض الخالص، ينص على المجال الاستمولوجي الذي تقوم فيه العلوم، لا للشك في موضوعيتها ويقينها، وإنما لغنتاج الخطاب الميتافيزيقي الذي يكشف عن أسسها، وليس سيرورة نشأتها، وتلك هي مهمة نظرية في المعرفة، غير أن هذا لا يشكل الجانب الأساسي ولكن التمهيدي من المشروع، بما هو مشروع إمكانية قيام الميتافيزيقا كعلم" (المحمداوي و مهناة، 2012، صفحة 414). لا يمكن للخطاب الميتافيزيقي أن يكون كالخطاب العلمي، وذلك ما يراه كانط عمليا فهو يرفض أي عقل صوري وهو ما يتجلى في رفضه للميتافيزيقا، بما أن نقد الميتافيزيقا الكانطية هو نقد علمي بناء، فإن ذلك يحدث القطيعة بين العقل النظري والعقل العملي الكانطي، وفي ذلك نجد كانط يقول: "إن بقاء الميتافيزيقا واندثارها يقومان على الكيفية التي تحل بها مسألة كيف تكون الأقسام التأليفية ممكنة قبلها" (Kont & Ubereine, 1790, p. 244).

يدافع كانط عن العقل الخالص ويرى تجليه واضحا في معرفة النفس، بل وجوهر النفس، ويوضح أهمية ذلك بالنسبة للإنسان وعلاقة العقل بالنفس وضرورة وجود العلاقة الترابطية بينهما وهنا يقول:

"1- ما لا يمكن أن نفكر فيه أنه موضوع، لا يوجد إلا كموضوع، وهو من ثم جوهر.

2- الكائن المفكر لا يمكن أن نفكر فيه إلا كموضوع.

3- الكائن المفكر لا يوجد إلا كموضوع" (النشار، 2016، صفحة 291).

يستلزم هنا ضرورة وجود الموضوع حتى يكون الفكر قائم بحسب كانط، وبما أن الفكر له لزوم بضرورة وجود العقل، فإن العقل عندها يتخذ صوب الذات المفكرة من أجل قياس المعرفة الحاصلة لديه، وهو ما يكون وجوديا بين النفس والعقل، وبما أن المعرفة هي معرفة الحقيقة، فلا بد من إدراك الواقع العملي المثبت بالعقل النظري حسب كانط. وتبقى الميتافيزيقا عند كانط تخص الجوانب الأخلاقية والدينية دون غيرها من الجوانب المعرفية الأخرى.

3. ازدواجية الذات والموضوع عند كانط:

1.3. الذات عند كانط:

"حاول كانط أن يوفق بين الاثنين حتى يقدم نظرية معرفية قائمة على التوازن بين المذاهب والاتجاهات وتتخطى المصائب التي وضع يده عليها عند هؤلاء وأولئك لكي تحتكم إلى ملكة جديدة هي ملكة النقد على الرغم

من أن أي نظرية تحاول تسمية مثل هذه النظرية المعرفية لن تستطيع أن توضع في قضايا زمنية، إلا أننا يمكننا ملاحظة وجود مشكلة زمنية مستعصية معاصرة وضعها العلماء بحيث تدور حول الفيزياء النووية Nuclear Physics والفيزيائي الفلكية As-Trophysics وتتناول الأشياء والمسافات مهما صغرت أو عظمت، فقد أثبتت القواعد المنهجية للذوق العام أو الحس المشترك المستخدمة في مجال نظريات المعرفة في الماضي أنها لم تعد القواعد المناسبة" (إبراهيم، الصفحات 31-32).

تبدو مشكلة النقد مشكلة صعبة، إذ حاول الفلاسفة وضع نقد عقلاني للعقل في حد ذاته، وللحرية في حد ذاتها، لكن ذلك لا يكون إلا بصفة توافقية مع مراعاة العمل المشترك بين العقل والنقد، لإثبات الحقيقة الموضوعية بينهما كواقع عملي وإجرائي، وهو ما ركز عليه كانط في فلسفته النقدية. إن فلسفة كانط "تدعونا إلى أن نبذل قصارى جهدنا لتحقيق الغاية العليا للكون، كما تدعونا إلى أن نؤمن بأن العناية الإلهية تتسم كذلك بالاختلاف المأمول بين الفضيلة والسعادة. والناظرون في فلسفة كانط الأخلاقية لا يرون ذلك، لأنهم يعلمون أن الفلسفة الكانطية أبعد الفلاسفات الألمانية عن نزعات القومية ونزوات العصبية، ذلك أنها فلسفة لا أقول عالمية، بل إنسانية بأجمل وأرفع معاني الإنسانية" (كانط، مشروع للسلام الدائم، 1952، صفحة 21).

يميل كانط ميلا كبيرا إلى الوسطية الفكرية في الفكر الغربي ويحافظ على توجهاته انطلقا من الجوهر ودور الزمن والحاضر فيهما، وهنا يرى: "بأن الزمن فيه خلاف متعدي، وبأنه لكل زمن منعدم عليه، وزمن متأخر عنه" (إدموند، 2009، صفحة 16). إن تجربة الحياة تغذي الواقع المأمول للإنسان من كل جوانبه، وتحافظ عليه باعتباره الأداة العملية والفكرية لذلك ألا وهي العقل، وبما أن العقل يصل إلى التجربة العملية فإنه دائما ما كان النقد سبيلا إلى المحافظة على العلاقة التوازنية بين العقل ونقد العقل، وهنا يذهب كانط إلى تفسير العالم المادي بالفعل، في حيز العقل وكذا الوجود، ومنه بالوجود الموجود بالقوة إلى الوجود الموجود بالفعل، فعلى العقل أن يصبح خالصا إن كان يريد فهم الحقيقة الموضوعية في العالم المادي.

يرى كانط بأنه: "ووفق هذا القانون فالتغيير اتصال يدوم يمكننا تأويله بصيرورة Demir مشروطة بالصيرورة Processus، فالصيرورة بما هي تغيرات وتحولات تحد من مطابقة الأشياء لحالاتها الأصلية لتنظم في سيرورة لا متناهية منتجة للتوالي. وهذا القانون يعبر عن الحاضر ذاته بما هو اختلاف دائم، فالحاضر لا يدوم إلا على نمط مختلف المتوالي. إن الحاضر إذا هو الجوهر الدائم المنتج والمولد للتغيرات التي تسمح بالاختلاف الذي يعين الحاضر ذاته بوصفه بذاته هو الزمان" (مؤلفين، 2014، صفحة 24).

تكون سيرورة الزمان عبر تلك التغيرات الطبيعية التي تحدث وفق ما تمليه الطبيعة على الإنسان فيتبع منها ما يمكن أن يتبعه اعتماداً على العقل، ذلك العقل لا بد له من إنتاج نقدي فعال لكي يغير من معطيات الواقع الموضوعي المستمد من التجربة. وهنا نجده يقول: "إن الإنسان من ليس في حاجة إلى بحث طويل يدل على أن هناك نوعين من المعارف، تلك التي يستمدها من التجربة فهي لهذا السبب. معارف عرضية جزئية تحتل التعدد والاستثناء، وتلك التي تتبع من العقل فهي لهذا السبب معارف ضرورية وشاملة. من هذه الأخيرة نذكر معارفنا الرياضية، ومعارفنا في العلوم الطبيعية، التي تنتج لنا قوانينها الضرورية العامة أن تنتبأ بما يحدث في الكون الأكبر والكون الأصغر في المجرات الهائلة وفي جزئيات المادة" (كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، الصفحات 9-10).

يبين بذلك كانط أن العقل هو الأداة التي توصل إلى المعارف العلمية وكذا المعارف العقلية بالتحليل والاستقراء والاستنتاج والتركيب. لأن العلوم الطبيعية بحاجة إلى الحواس تلك التي تنطلق من الوعي عبر التصورات الفعلية لإحقاق معرفة نوعية استدلالية واضحة وهو ما يحدده العقل العملي بمفاهيم واضحة واستبائية توصلنا إلى الحقيقة عبر العقل العملي.

2.3. الموضوع عند كانط:

"وبذلك يؤمن كانط بمشروع لتحسين البشري في الحقيقة التي تحدث الائتلاف مع الطبيعة، وهذا المشروع يتطلب أن تكون الإرادة الإنسانية العاقلة الواعية هي التي تشكله وتحققه وتتجزه" (توشار، 1987، صفحة 381). ينطلق بذلك كانط من منطلق عقلي ثابت يقيم الحقوق والواجبات ويراعي قواعد التفكير السليم وكذا القانون العام مع مراعاة الأخلاق والحقوق المدنية، بالإضافة إلى احترام حدود العقل وتصوراته التي يقبلها المنطق ولا توضع إلا في إطار الوجود الطبيعي، وتلك هي شروط رئيسية لإعلاء كلمة الحق بالفعل، على أن يكون العقل يتماهي في التجربة الحسية العملية لإصلاح الذات التي تقوم بدورها بإصلاح فرد الذات وفق أطر إيتيقا النقاش في العقل الخالص.

يبدو أن العقل عندما كان متأثراً بالتعليمات الكنسية، كانت تلك التعليمات قد أثرت عليه وجعلته يتأخر نوعاً ما ويصل إلى الجمود الفكري. وذلك ما جعل كانط يفكر في ضرورة تحرر العقل من الهيمنة الكنسية بإرجاعه إلى الواقع التجريبي، وإحاقه بالعلوم الطبيعية بدلاً من الدين. "فهذه الثورة قد حملت العقل من هيمنة الكنيسة إلى اتخاذ المسؤولية الذاتية اتخاذ كل المسائل التي تهتم بالإنسان وبالتالي فإن عصر الحداثة الكانطية قد أعاد للإنسان إنسانيته وأقر بأن الإنسان ازدواج بين الجسد والعقل" (الهيودي، 1986، صفحة 133).

يسعى كانط من خلال آرائه إلى التوفيق بين العقل الفطري والعقل العملي ويرى أن المعرفة الصادرة عن كليهما هي معرفة حقيقية نظرا لوجود واقع حسي يجمع بينهما، بحيث يرى أن العقل السائد هو السبيل للوصول إلى الفكر الناضج والذي يفتح لنا أسس المعرفة الحقة الأخلاقية والواقعية والتي نحن بحاجة إليها. فهو بذلك يرفض أي ادعاءات للميتافيزيقا وأي دخل لها في الحياة المعرفية لأنه صورية ووهمية لا تمت للحقائق بصلة، ولا تمد العقل إلا بالأوهام والخيال. فيرى كانط أن: "من بين كل ما يمكن تصوره في العالم ويوجد عالم خارج عن هذا العالم ليس ثمة ما يمكن اعتباره خيرا دون تحفظ إن لم يكن الإرادة الخيرة" (كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، صفحة 61). تلعب دورا كبيرا في فتح المجال أمام العقل من أجل تبصر المعرفة الخالصة التي تؤدي إلى إدراك المعرفة العقلية من المعارف الأخرى والنظر في المعرفة الشكية وحتى الدينية، إذ لا بد من أن تمر جميع المعارف إلى النقد العملي من أجل ضبطه عمليا في ميادين العلوم التجريبية، ويعتبر العقل الملاذ الآمن لهذه المعارف جميعا بعضها ببعض وهنا نجده يقول: "ولا أشاطر في الحقيقة ذلك الرأي الذي غالبا ما عبر عنه أناس أفاذا وجدون مثل رولتسر كانوا يشعرون بضعف الأدلة المستعملة حتى الآن، أعني كانوا يأملون العثور يوما على أدلة بديهية تجعل عقلا المحض له فكرتين أساسيتين: ثمة إله وثمره حياة مقبلة، بل إنني متيقن على العكس من أن ذلك لن يحصل البتة إذ من أن سيجد العقل أساسا لمثل هذه المزاعم التأليفية التي لا صلة لها بموضوعات التجربة" (كانط، نقد العقل المحض، صفحة 115).

ييدي كانط نظرة تحليلية واقعية لعقل يحاول الدخول إلى الحقيقة التي تبدو صعبة المنال لفهم الواقع الموجود لدى البشر، ويثبط العقل تلك المزاعم التي تجعله لا يفهم الحقيقة وهو ينتقدها لأنها في واقعها طبيعة يميلها العقل المحض ويستخرجها من المعرفة الخالصة.

ما فتى كانط يدعو إلى إقامة علاقة وثيقة بين العقل والحرية في مجال العمل الأخلاقي وحتى السياسي منه، ولا أدل على ذلك من قوله أن السلوك يسير وفق عقد محدد يضمن الشروط المناسبة لقيام القواعد الأخلاقية إذ: "يرتبط بواسطته أفراد إرادة حميمية يوكلون لسلطاتهم المنفصلة ذات الردع المتبادل، ومع إدراك أن مجموعة من يتحدد دور الحرية في الفعل الأخلاقي أو في الإرادة العامة (General Will) التي يراها كانط ضامنا أساسيا لوجود دعائم العقل العملي وأسس ومبادئه، وهي بذلك تنطلق من صفة الخير والشر - أو الخير الأسمى والذي لا يكون إلا بتوفر الشروط النفسية والروحية المرتبطة بالعقل الفعال والذي يحدد مضامينها وأفعالها على أرض الواقع الحسي المواطنين هي نفسها صاحبة السيادة، ومن ثم يستطيع كانط أن يثبت في كتابه مشروع للسلام الدائم، أن الحرية الخارجية ليست حرية الشخص في أن يفعل ما يشاء حتى داخل حدود الحرية المشابهة للآخرين،

وإنما هي بالأحرى تحرره من طاعة أي قوانين خارجية قد لا يقبلها وينجم عن هذا أن الحكومة التمثيلية التي يسود فيها التشريع عن طريق الإرادة العامة، هي الحكومة الشرعية القانونية الوحيدة" (بيير، الصفحات 197-198)..

4. أخلفة العقل الكانطي:

"ومعنى هذا أن الإرادة هي تلك الملكة المشرعنة والتي يمكن أن نسميها العقل العملي، فالإرادة الخيرة هي البنية الطبيعية التي تنبثق عن أي فعل أخلاقي، بل هي التي تضيء على الفعل صفة أخلاقية" (زكرياء، صفحة 164).

إن اقتضاء وجود عقل أخلاقي، ذلك العقل الذي يمثل حقيقة أمام الضمير الخلقى الجمعي منه أو الفردي، والذي يلعب دورا حاسما في بناء العلاقات التراكمية بين العقل كقوة فطرية قلبية وبين الفعل كممارسة فعلية في ميدان العلوم الطبيعية، وهو ما جعل العقل الخالص الكانطي ينظر إلى إعادة هيكلة بنيته التركيبية الفكرية برفض الفكر الكنسي، بل ورفض الميتافيزيقا التي تعيق عمل العقل الخالص والذي مآله التقدم والتطور الفكري والذي يصيب أهدافه ونتائجه في الميدان العام، وبالتالي عندما يحاول العقل في الأشياء التي تتعلق بموضوعات ما فوق الحس، من مثل وجود الله والعالم الآخر، ويجحد حقه في أن يكون الطرف الأول الذي يخوض فيها، فإن كل شيء يصبح أوهاما وخرافات لا بل إن السياسي يفتتح على مصرعيه أمام الإنكار والإلحاد" (Kont & Washei, *Sich in benten orientireni AAVI II, 1986, p. 18*).

يبين هذا أن كانط لا يؤمن بالفكر العقلاني اللاعقلاني في حد ذاته. وأن للعقل حدود يجب عليه أن يفكر فيها وأن لا يتجاوز حدود عقله حتى لا يقع فيما فوق العقل من تفكير، ولابد من نظرة استباقية لعمل العقل الفعال في الحقل الطبيعي.

ولقد واصل كانط بحثه في "تظرية المعرفة لفحص العلاقة بين المعرفة والوجود وهي لب مشكلة المعرفة منذ بداية الحياة الإنسانية بوجه عام. وبداية الفلسفة التجريبية خاصة لدى اليونان، ولدى السوفسطائيين بوجه أخص، وضع كانط أمامنا نموذج معرفة يقينية يقبلها العقل دون تردد وهي المعرفة الرياضية والمعرفة الطبيعية كما وضع نموذجا آخر في معرفة غير يقينية لا يقبلها معظم العقول البشرية، بل تختلف في شكلها ووسائلها ومراميها وهي المعرفة الميتافيزيقية -التقليدية" (إبراهيم، صفحة 32).

يستبعد بذلك كانط المعرفة الميتافيزيقية اليونانية ويصفها بأ،ها معرفة فاشلة ولا ترقى إلى مستوى اليقين أو المعقول نظرا لتعالها عن الواقع البشري والعقل والمنطق، فهي بذلك معرفة سابقة عن العقل ولا مجال للحقيقة فيها. ويذهب كانط إلى أن العقل له دور إجرائي عملي، ولا يملك دورا ميتافيزيقيا. "فالعقل العملي فيها هو الذي يخضع

لحواجز حسية وانفعالية والتي تنتقل إلى مبادئ أخلاقية قبلية، وهو الذي يجعل العمل الأخلاقي خاضعا لتشريع عام، عن ما وصفوه أو عن ما وضعوه، ومبادئ هذا العقل هي التي تمنح الأخلاق استقلالها، وتعفيها من كل تبعية للوجود وهي التي تظهر لنا طابع قيمتها الجوهرية" (ميمون، 1980، صفحة 87).

تبدو العلاقة بين المعرفة والوجود علاقة يتدخل فيها العقل لإحداث نوع من الترابط المعرفي العيني بين الإنسان والطبيعة وحقيقة اتباع العقل في ذلك الوجود المستقل. يتحدد بذلك العقل العملي الكانطي بالسلوك الأخلاقي الذي له صلة وثيقة بالقيم الأخلاقية جميعا والتي تتجلى في الانطباعات الأخلاقية الانفعالية منها وغيرها الانفعالية، ومن هنا تأخذ القيم الأخلاقية أبعاد أخرى عند كانط تتجلى في القواعد الأخلاقية الصادرة عن الإنسان. فحسب كانط "لا تتركز في الموضوع، بل في الفاعل الأخلاقي ذاته، أي الإنسان" (العوا، 1978، صفحة 203).

إن الإنسان برأي كانط هو الذروة الكبرى لبناء أية قاعدة معرفية سواء أكانت عقلانية أو حسية، نظرية أو عقلية فينبغي على الإنسان أن يعيش حالة ألا استقرار معرفي إذ هو لم يعتمد على التوافق المعرفي في حد ذاته. يقول كانط: "لذلك فليس هنالك من توسيع لدائرة المعرفة بما وراء الحس، وتكون معطاة، بل إنما هنالك توسيع لدائرة العقل النظري ولمعرفته بما يتعلق هنا وراء الحس بصورة عامة، إذ من أجل بلوغ المعرفة هذه، يستوجب على العقل النظري المجرب الذي تكون جميع هذه الأفكار مستشرفة وبدون موضوع بالنسبة له، أن يذكر فقط ملكته العملية، ففي هذه الملكة تصبح تلك الأفكار مستدينة وموجودة أو مكونة" (كانط، نقد العقل العملي، 1966، صفحة 230).

يملك العقل بذلك ملكة جريئة لفهم ذاته وفهم ما حوله من الآخرين، لأنه بذلك ينطلق من الأفكار ويحولها إلى واقع دلالي حسي يعمل وفق العمل التجريبي بناء على الاستنتاج والتجربة والملاحظة، وبالتالي فالعقل الفعال هو الذي يجب أن يكون بالنسبة إلى الإنسان كعقل واع يحمل حقائق بذاته، وإن دل ذلك على شيء إنما يدل على تلك العلاقة الرابطة بين الروح والعقل أو النفس، تلك النفس التي تتسم بالعلو والرفعة. "وعلى الرغم من أن كانط قد انتقد القائلين بجوهرية النفس ويساطفتها، إلا أنه سلم معهم بخلودها. لكن تسليمه بهذا الخلود لم يكن قائم على تلك البراهين التي سرعان ما يقدمونها كأدلة نظرية عقلية على هذا الخلود، وأنه يرى كما في نقده للعقل النظري أن هذه البراهين ليست -ولن تكون- براهين صحيحة ومحكمة على خلودها. ومن ثم فالأولى أن نجعل مسألة خلود النفس من المسائل التي يمكن التسليم بها تسليما في إطار ما يسميه كانط في فلسفته عموما (الميتافيزيقا المشروعة) وهي ميتافيزيقا العقل العملي" (النشار، 2016، صفحة 292).

إن هذا التسليم للعقل العملي الكانطي والذي يرجعه أساساً إلى تلك الرابطة الوثيقة بين النفس المتخيلة في الإنسان والتي تتمتع بالوجود الذاتي الفعال والتي تتحكم في الإنسان ورغباته وعواطفه وميولاته بل وحتى في أخلاقه، ولها كل العلاقة بالعقل المستقل الذي يثبت وجوديتها في إطار حر ينبثق عن السلوك الإجرائي وكذلك الفعل، وهو أمر مشروط بالإرادة الإنسانية لتحقيق أهداف النفس المتصلة بالعقل العملي والمتجلية في الأخلاق، تلك الأخلاق الصادرة عن الله كفاعل متحكم في السلوك عبر الروح والحرية وهو أمر إيماني يتحدد بوجود الثقة المطلقة بين النفس والروح والله على أساس الملكة الفطرية، وما العقل إلا محرك للتفاعلات الديناميكية الموجودة بينهم، وذلك ما يؤسس لوجود تفسير طبيعي وكذا تفسير عقلائي لفرضية وجود الأديان، هذه الأديان هي التي تتصل بها الروح من أجل إنتاج ذاتها في الإنسان، ويتجلى وجودها في وجود العقل العملي. وذلك كله ينصب في الأخلاق التطبيقية الكانطية.

"لقد ادعى كانط أنه جاء بثورة في الفلسفة تشبه الثورة التي جاء بها كوبر نيقوس في الفلك، وسمى كانط هذه الثورة الفلسفية بالفلسفة النقدية. والسؤال الرئيسي الذي تولدت منه هذه الثورة هو كيف يمكن لموضوع بعينه أن يطابق تصوراً من تصورات العقل؟ بتعبير آخر، لقد كان هدف كانط أن يكشف كيف تكون المعرفة الأنطولوجية...ممكنة مثل هذه المعرفة ليست مرتبطة بالموجود بما هو كذلك، ولكن...بإمكانية الفهم الأولى لوجوده" (جمال، 2009، صفحة 55).

تتبدى المعرفة الأنطولوجية الكانطية في النقد المعرفي البناء، إذ لا يمكن قراءة النقد العقلي إلا على أسس التصورات الفعلية الخطابية للعقل في حد ذاته. والتي بدورها تعود على الحياة الطبيعية لما لها من أخلاقية إيتيقية على واقعها العملي. "وبصور كانط حالتي الطبيعة الأخلاقية والقانونية، بأن الأفراد فيهما سنوا قوانينهم بأنفسهم، ولا يوجد لديهم طرف خارجي يعترف به من كل الآخرين من أجل الخضوع له، وكل إنسان فيهما هو القاضي لنفسه، وليس فيهما حكم عمومي بيده السلطة، أي ليست ثمة من الحق في أحد أن يحدد الواجبات على الكل، وأن يحول هذا الواجب إلى ممارسة. وكلا الحاليتين متداخلتين" (المحمداوي، الفلسفة السياسية، كشف لما هو كائن، وخوض في ما ينبغي أن يكون للعيش معاً، 2015، صفحة 157).

تتدخل الحياة السياسية في الممارسة الفعلية الموجودة في العقل العملي على أساس وجود أسباب تنمهي في الفعل كفعل خاضع للسلوك الإنساني دون غيره وعلى العقل حسب كانط أن يتبع الملكة الفطرية لديه بجعل المعرفة أكثر فهماً وأكثر عقلنة وفي ذلك يقول كانط: "فإنذا كانت الفاهمة هي القدرة على توحيد الظواهرات بواسطة القواعد، فإن العقل هو القدرة على توحيد القواعد الفاهمية في مبادئ. فهو إذن لا يتصل البتة مباشرة بالتجربة، ولا بأي

موضوع آخر، بل الفاهمة، كي يضفي على متنوع عارفها قلبيا، وبمفاهيم وحدة يمكن أن نسميها وحدة عقلية، وحدة من ضرب مغاير تماما لتلك التي يمكن أن تتصورها المفاهيم" (كانط، نقد العقل المحض، صفحة 189).

إن ذلك الترابط العقلي الموجود لهو دليل على وجود بنية عقلانية تطبق على الفعل بدلا من الفكر -ولا أدل على ذلك من وجود متغيرات متعلقة بالتجربة الحسية وبالواقع العملي الموجود، وبما أن ذلك لا يكون إلا وظيفيا بالنسبة للعقل العملي الذي يصوب السلوك الأخلاقي فإنه يهدف إلى تحقيق الفطرة الذاتية للأشخاص، دون الوقوع في خلل الانفراد بالسلوك الذاتي، وهو ما من شأنه أن يجعل الإنسان يهتم بالجانب الروحي من أجل إحقاق السعادة والخير الأسمى بالنسبة للإنسان ولغيره، وهو أمر مشروط بالبنية العقلية كقوة كامنة في الإنسان.

"إن كانط يرد السلوك الديني (الاعتقاد بوجود الله وبقاء النفس) إلى حاجة لدى الشخص تتولد من علاقاته بمثله الأعلى الأخلاقي فيبدي لنا كانط فلسفته الأخلاقية نازعة نزوعا صوب الحرية والتي فيها تريد أن تكون، فالفعل الأخلاقي يكون أخلاقيا ما لم يكن صادرا عن إرادتنا الحرة، ومهما تكن نتائج الفعل أخلاقية فهو لا يعد أخلاقيا إذا صدر عن خضوع لإرادة خارجية، فمناط أخلاقية الفعل عند كانط انبثاقه من الذات وصدوره عن كيانتنا الداخلي" (المحمداوي و مهناة، مدرسة فرانكفورت النقدية -جدل التحرر والتواصل والاعتراف-، 2012، الصفحات 241-242).

تلعب الإرادة الحرة المنطلقة من الذات كمصدر رئيس دورا رئيسيا في إثبات الوجود المعرفي حتى للذات في حد ذاتها، فلا يكون الفعل الأخلاقي إلا تعبيراً عن إرادة أخلاقية تمس جوانب الإنسان فيغيرها ويتغير بها، أو تتجلى له في السلوك الخارجي، وهو نمط أساسي لإحياء الحاجيات البشرية لدى الإنسان. وهنا يلتفت كانط إلى التفرقة بين دور العقل في العلم وكذا دوره في مختلف العلوم خاصة الوضعية منها، وبما أن العقل هو الآخر يختص في دراسة الظواهر فتلك الظواهر تكون مادية وفي حيز الطبيعة، إذ لا يمكن للعقل أن يحدد دوره إلا بشروط مسبقة يمكن أن يتبناها هو بذاته للوصول إلى المعرفة، وهنا نجده يرى: "أن وجود الله ينتمي إلى مجال الإيمان، لا العلم، على الرغم من أنه ليس لدي بالنسبة إلى معرفة العالم النظري، ما أقرره، مما يتعرض بالضرورة إلى هذه الفكرة كشرط لتفسيراتي للظواهر، بل تراني بالأحرى أن أستخدم عقلي، كما لو أن كل شيء طبيعي، فإن الوحدة الغائية هي مع ذلك شرط كبير لتطبيق العقل على الطبيعة. لا يمكن أن أحذفه حين زودتني التجربة بمثل هذا العدد الكبير من الشواهد العلية. وبكل ما فيه من إسهام في الاستقامة الأخلاقية للفرد" (زيغمي، 2015، صفحة 147).

تعد الإرادة دافعا قويا للعقل على إعادة تركيب ذاته بذاته. وذلك من خلال تهيئة البيئة المناسبة للمحافظة على وجوده العيني، وهي سبيل رئيس لفك الرابطة الموجودة بين العقل والعالم. وذلك ينصب ذلك حسب كانط إلى

البحث عن الحقيقة. "وإذا كنا نبحث عن تصور الحقيقة عند كانط فإن كانط يرى أن الحقيقة والوهم ينتميان للموضوع في الحكم عليه بقدر ما هو فكر. أي بقدر ما يكون الموضوع موضوعا للفكر المؤسس على التصور. وبهذا الصدد يقول كانط: "يصدر الظاهر الخداع أو الحقيقة عن عدم احترازنا أو احترازنا وهذا يتوقف على استخدامنا للتصورات الحسية للفهم ولا يتوقف على أصلها" (جمال، 2009، صفحة 56).

إذن يرجع كانط المنطلق الأصلي للفهم إلى فهم الفهم، أو فهم ما يريد العقل أن يصل إليه في الواقع، وذلك من أجل تبيان الأحكام الأصلية من أصولها الأولى. لأن الحقيقة قد تختلف من أصلها إلى فرعها، ويرجع ذلك إلى كيفية استخدام العقل لها.

ويذهب كانط في العقل بعيدا، فيرى أن العقل يتدخل في الحياة السياسية لتحليل واقعها من حيث الممارسة أو الفعل. "إذ ترى فلسفة كانط السياسية أن العقل المستقل والقانوني على أساس الحرية يمثل مصدر الحق السياسي، ومن جانب آخر، تقوم محكمة العقل ومن خلال اعتماد بعض قواعد التفكير الصحيح، بإخضاع الآراء والأفكار السياسية، للتمحيص والنقد، وتسعى إلى تعريف المبادئ الأساسية للسياسة" (علي، 2007، صفحة 206).

يبدو أن العقل الكانطي يخضع لعملية توصيحية في طرائق التفكير ووسائل النقد البناء للمفاهيم والتصورات والحدود التي تتجلى في الواقع العملي الموجود، وهو ما من شأنه أن يضع أسلوب الفعل الأخلاقي في العقل العملي الكانطي. وربط ضرورة وجود العقل الأخلاقي بوجود العقل الإلهي، فنجدته يقول: "أي إنه علينا أن نسلم بوجود الله إذا أردنا أن نحكم بخاصة على العلة الأولى لكل عرضي في نظام الغايات الموصودة بالفعل في العالم. والأهم من هذا بكثير حاجة العقل في استعماله العملي، لأنها غير مشروطة، فمن لا يحتاج عندئذ إلى افتراض وجود الله عندما نريد أن نحكم وحسب، بل نحتاج إليه لأنه يجب علينا أن نحكم ذلك أن الاستعمال العملي المحض للعقل يقوم على أوامر القوانين الأخلاقية، بيد أنها تفضي كلها إلى فكرة الخير الأسمى ما هو ممكن في العالم من حيث يكون ممكنا بواسطة الحرية وحدها: (الأخلاق)" (كولر، 2012، صفحة 110).

يربط كانط بين العقل العملي والحرية، يرى الحرية عامل لبناء علاقات متكاملة الأوصال، حيث أن الحرية تجعل الأطراف المشاركة في العملية الوضعية أو العملية الطبيعية تسير وفق قواعد منظمة ومركبة ومهيكلية من أجل تنظيم عمل العقل وإثبات وجوده في الطبيعة وهو أمر يستلزم منا بناء روابط قانونية ومدنية تجعل العقل يخضع للشروط والمبادئ الاجتماعية حتى يحافظ على الهيكلة الاقتصادية والسياسية للمجتمعات خاصة المركبة منها.

ويدعم ذلك إذ يرى: "أن الحق الفطري الوحيد هو الحرية، بالمقدار الذي يمكننا من أن نعيش مع الآخرين، وهو حق مكفول للإنسان بما هو إنسان، أي بمقتضى إنسانيته، ويشتمل هذا الحق على المساواة الفطرية (الاستغلال)، وهو أن يكون المرء ملزماً عن طريق غيره، بما يلزم الآخرين اتجاهه، أي أن يكون عادلاً، والحقيقة أنه لا وجود للظلم قبل صدور أي مرسوم قانوني، لأن أي فعل قبله لا يعد ظالماً، وما عدا الحرية هذه لا يوجد حق طبيعي فطري آخر، بل كل الحقوق الأخرى مكتسبة لأنها تتجه لعلاقات خارجية تقوم وفقاً لقوانين كلية" (المحمداوي، الفلسفة السياسية، كشف لما هو كائن، وخوض في ما ينبغي أن يكون للعيش معاً، 2015، صفحة 159).

تتألف القواعد اللاأخلاقية في العقل العملي مع ما هو عملي في العقل العملي في حد ذاته، لذلك لا ينبغي للإنسان ككائن أن يستغل أو أن يتطفل على الحقوق عامة لأنه يملك العقل الحقيقي ألا وهو العقل الأخلاقي.

5. خاتمة:

نستنتج أن العقل عند كانط أخذ سبيله إلى العلم العملي، ووصل إلى منتهى المعرفة التجريبية الضاربة في ثنايا العلوم الوضعية والتجريبية المعاصرة، إذ سعى كانط جاهداً إلى تحقيق نوع من التوفيق العقلاني للعقل العملي والنظري والبلوغ بهما إلى مستوى يخدم الإنسان المعاصر ذاتاً وموضوعاً فكرياً ومعنى وحساً.

إذ ومن بين النتائج المتوصل إليها هو تحقيق كانط لعقل عملي نظري يؤسس لمبادئ أخلاقية إيتيقية لا تتجاوز المنطق ولا الأخلاق ولا الأعراف الثأوية في المجتمعات الغربية المعاصرة.

وهو بذلك أعطى نتائج عملية براغماتية هادفة للنقد من منطلق الشك والحقيقة وإبداء الرأي والرأي المخالف على أساس أيديولوجي يتناسب مع الطرح الوضعي والمنطقي للابستيمولوجي وكذا للعلمة وعقلنة العقل العملي بما تستوجبه الطبيعة البشرية في النفس أو في الروح بأخلاق تخدم الصالح العام للمعرفة المبتعدة عن الميتافيزيقا والمقتربة من العقل والحس والتجربة والعلوم المتصلة بالإنسان ككائن فاعل في المجتمع، بل وفي ذاته وفي سيرورته.

من هنا يستوجب علينا أن نطرح بعض الاقتراحات أو الحلول التي تجعل العقل عقلاً خالصاً يفكر تفكيراً أخلاقياً يحافظ فيه على مبادئه المجتمعية وخصوصياته الثقافية والهوية. فلا بد للعقل الكانطي أن يحافظ على ماهية العقل ودوره في تحديد سلوكيات الأفراد والجماعات وبناء المجتمعات وفق عقل عقلائي معقلن يعتمد على التواصل والحوار البنينداتي لتأسيس أطر إيتيقا النقاش التي تتفاعل وتتفاعل من أجل الوصول إلى علم وضعي وعملي وإلى أهداف ونتائج حقيقية تستمد قوتها من العقل كقوة فطرية خالصة لذاتها وفي ذاتها، ومن ذلك نخلص إلى تحديد

العقل الكانطي على أنه عقل توافقي يتماشى مع معطيات العقل العملي والعقل الخالص والذي ثبت في الممارسة الفعلية في الفلسفة الغربية خاصة ما تعلق منها بالعقل الأدائي أو العقل الأدائي، إذ كان العقل إجرائيا وعمليا انطلق مما انطلقت منه معطيات العولمة الغربية والتكنولوجيا والحدثة وما بعد الحدثة. وفي ذلك تكون نتائج النقد التي دعا إليها كانط نتائج إيجابية على الفكر الغربي إذ كان واضحا أن ذلك النقد أحدث ثورة نهضوية وفكرية في الفلسفة الغربية إذ جعلها تتوجه إلى فلسفة العلم أو الإبتيمولوجيا كسبيل لها للمضي قدما إلى عقلنة النقد وجعله يتماشى مع العلم ومعطيات الواقع العملي الذي هو أساس النمو والتقدم في الحضارة الغربية. من ذلك نستنتج أن العقل والنقد الكانطيين كانا لهما أثر بالغ في إحياء الفكر والفلسفة الغربية عموما.

6. قائمة المراجع:

1. Kont, & Ubereine, E. n. (1790). Kritik der reine ver numunif dureiene altune.
2. Kont, & Washei, B. (1986). Sich in benten orientireni AAVI II.
3. إبراهيم م. إ. الفلسفة الحديثة من كانط إلى رينو غيبه. مصر: دار المعرفة الجامعية.
4. إدموند ه. (2009). دروس في فينومونولوجيا الوعي. بيروت: منشورات الجمل.
5. العوا ع. (1978). الأخلاق. دمشق: المطبعة الجديدة.
6. المحمداوي ع. ع. (2015). الفلسفة السياسية، كشف لما هو كائن، وخوض في ما ينبغي أن يكون للعيش معا. الجزائر، لبنان: منشورات صفاف، منشورات الاختلاف.
7. المحمداوي ع. ع. & مهنانة إ. (2012). مدرسة فرانكفورت النقدية - جدل التحرر والتواصل والاعتراف -. الجزائر، لبنان: ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية ناشرون.
8. النشار م. (2016). مدخل جديد إلى فلسفة الدين. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
9. الهويدي ي. (1986). الدين والأخلاق. دار الثقافة للنشر والتوزيع.
10. بيبير ه. إيمانويل كانط ضمن كتاب الفلسفة التاريخية .
11. توشار ج. (1987). تاريخ الفكر السياسي. لبنان: الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع.
12. جمال م. أ. (2009). مارتن هيدغر الوجود والموجود. دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
13. زكرياء إ. المشكلة الخلقية. دار سحنون للنشر والتوزيع.

14. زيغمي، أ. (2015). فلسفة التاريخ عند هيغل. الجزائر، لبنان: منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف.
15. علي. (2007). فلسفة كانط السياسية. بيروت: دار الهادي.
16. كانط، إ. أسس ميتافيزيقا الأخلاق. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
17. كانط، إ. (1952). مشروع للسلام الدائم. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
18. كانط، إ. (1991). مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما. الجزائر: موفم للنشر.
19. كانط، إ. (1966). نقد العقل العملي. لبنان: دار النهضة العربية.
20. كانط، إ. نقد العقل المحض. لبنان: مركز الإنماء القومي.
21. كولر، ه. ز. (2012). الميتالوجيا الألمانية. لبنان: المكتبة العربية للأبحاث والنشر.
22. مؤلفين، م. (2014). الفلسفة الألمانية والفتوحات النقدية، قراءات في إستراتيجيات النقد التجاوز. لبنان: جداول للنشر والترجمة والتوزيع.
23. ميمون، أ. (1980). نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلق. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.